(سلطان العلماء– العز بن عبد السلام)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبار العلماء العاملين والحكماء الصالحين والمجاهدين المتقين تغرس الفضائل في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالى، يثبّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة الرابعة من سلسلة (أعلام من الشام)، التي أحدّثكم في كل خطبة منها عن واحد من أعلام هذا البلد التقيّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عن علَم وُلِدَ هنا، أو مرَّ من هنا فعاش حقبة من الزمن، أو توفاه الله في هذه البلدة.

والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثت إليكم عن السلطان الشهيد نور الدين زنكي، وعن السيدة ست الشام، وعن مؤرخ دمشق ومحدّثها الإمام الحافظ ابن عساكر. وحديث اليوم عن :

سلطان العلماء؛ العز بن عبد السلام

هو شيخ الإسلام عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، أبو محمد الدمشقيُّ الشافعيُّ. وُلد بدمشق سنة 577هـ، في كنف أسرة متديّنة فقيرة مغمورة، وابتدأ العلم في سن متأخرة، فاختار فطاحل العلماء العاملين، أخذ علمَهم وتأثّر بهم وبأخلاقهم الفاضلة، وسلوكهم الرفيع في الحياة، فجمع بين العلم والأخلاق والسلوك والعمل، حتى صار أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلقِ الله تعالى كما قال السبكي.

برع العز بن عبد السلام في الفقه والأصول والتفسير والعربية، حتى انتهت إليه رياسة المذهب الشافعي، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقُصِد بالفتاوى من كل مكان.. فاستحق لقب "سلطان العلماء"

اتجه إلى التدريس والإفتاء والتأليف بعد أن اكتمال تحصيله، وتولى المناصب العامة في القضاء والخطابة في مساجد دمشق أولاً، ثم في القاهرة بعد أن هاجر إليها.

وقد وُصف الشيخ -رحمه الله- بالزهد والورع الشديدين، كما وُصف بالبذل والسخاء، والعطف على المحتاجين.

قال عنه الذهبي: "بلَغَ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين، وقَصَدَه الطلبة من الآفاق، وتخرّج به أئمة".

وقال عنه ابن دقيق العيد: "كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء".

وقال عنه ابن الحاجب: "ابن عبد السلام أفقه من الغزالي".

وقال عنه ابن السبكي: "شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه".

كان العز عبد السلام خطيبًا بارعًا، يؤثر في مستمعيه بصدق عاطفته وغزارة علمه، وسلاسة أسلوبه، ووضوح أفكاره، خطب في الجامع الأموي في دمشق، وفي جامع عمرو بن العاص في القاهرة .

وعُرِف عن الشيخ العز بن عبد السلام جرأته في الحق وقوته في تبليغه، وأختار لكم من ذلك ثلاث وقائع:

الأولى: إنكار بيع السلاح للصليبيين والسلطان.

حينما تولى الصالح إسماعيل الأيوبي أمر دمشق تحالف مع الصليبيين، وكان من شروط تحالفه معهم أن يُعطي لهم مدينتي صيدا والشقيف، وأن يسمح لهم بشراء السلاح من دمشق، وأن يخرج معهم في جيش واحد لغزو مصر.

فثار العالم الجليل العز بن عبد السلام، ووقف يخطب على المنابر يُنكِر ذلك بشدة على الصالح إسماعيل، ويُعلِن أن الصالح إسماعيل لا يملك المدن الإسلامية ملكًا شخصيًّا حتى يتنازل عنها للصليبيين، كما أنه لا يجوز بيع السلاح للصليبيين، وخاصةً أن المسلمين على يقين أن الصليبيين ما يشترون السلاح إلا لضرب إخوانهم المسلمين، فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن عزله عن منصبه في القضاء، ومنَعَه من الخطابة، ثم أمر باعتقاله وحبسه، ثم إنه أخرجه من السجن وضرب عليه عزلة.

الثانية: بائع الأمراء.

سئم الشيخ العز بن عبد السلام العزلة التي فُرضت عليه، ومنعَه من إلقاء الدروس وإفتاء الناس، فقرر الذهاب إلى القاهرة، ورفض أن يتودّد للسلطان ويستعطفه حتى يرضى عنه.

وصل الشيخ إلى القاهرة سنة 639 هـ واستقبله سلطان مصر الصالح أيوب استقبالاً عظيمًا، وطلب منه على الفور أن يتولى الخطابة في جامع عمرو بن العاص، كما عيَّنه في منصب قاضي القضاة، وجعله مشرفًا على إعادة إعمار المساجد المهجورة في مصر.

اكتشف سلطان العلماء أن الولايات العامة والإمارة والمناصب الكبرى في مصر كلها للمماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب قبل ذلك؛ ولذلك فهُم في حكم الرقيق والعبيد، ولا يجوز لهم الولاية على الأحرار.

فأصدر فتواه بعدم جواز ولايتهم؛ لأنهم من العبيد.

واشتعَلت مصر بغضب الأمراء الذين يتحكّمون في كل المناصب الرفيعة، حتى كان نائب السلطان مباشرة من المماليك، وجاؤوا إلى الشيخ العز بن عبد السلام، وحاولوا إقناعه بالتخلي عن هذه الفتوى، ثم حاولوا تهديده، ولكنه رفض. فرُفع الأمر إلى الصالح أيوب، فاستغرب من كلام الشيخ ورفضه.

وجد الشيخ العز بن عبد السلام أن كلامه لا يُسمَع، فخلع نفسه من منصبه في القضاء، فهو لا يرضى أن يكون صورة مفتي، وهو يعلم أن الله عز وجل سائله. وركب الشيخ العز بن عبد السلام حماره ليرحل من مصر، وخرج خلف الشيخ العالم الآلافُ من علماء مصر ومن صالحيها وتجّارها ورجالها، بل خرج النساء والصبيان خلف الشيخ تأييدًا له، وإنكارًا على مخالفيه. ووصَلَت الأخبار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأسرع بنفسه خلف الشيخ العز بن عبد السلام واسترضاه، فقال له العزُّ: إن أردتَ أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلا بد أن يباعوا أولاً، ثم يعتقهم الذي يشتريهم، ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دُفع قبل ذلك من بيت مال المسلمين، فلا بد أن يُرَدّ الثمن إلى بيت مال المسلمين. ووافق الملك الصالح أيوب.

وكم كان المشهد مهيبًا والشيخ العز بن عبد السلام واقف ينادى على أمراء الدولة واحدًا بعد آخر ويغالي في ثمنهم، والسلطان الصالح أيوب يدفع الثمن من ماله الخاص إلى الشيخ الشجاع الذي أودع ثمنهم بيت مال المسلمين. وكانت هذه الواقعة سببًا في إطلاق لقب "بائع الأمراء" على الشيخ العز بن عبد السلام.

الثالثة الأخيرة: الأمراء أولاً في دفع الضرائب:

طالَت إقامة الشيخ في القاهرة حتى شهد ولاية السلطان سيف الدين قطز سنة (657 هـ)، وفي عهده أرسل المغول رسلاً إلى القاهرة تطلب منها التسليم دون قيد أو شرط، وكان المغول على أبواب مصر بعد أن اجتاحوا مشرق العالم الإسلامي، لكن سلطان مصر رفض هذا التهديد وأصرَّ على المقاومة والدفاع، وكان الشيخ العز بن عبد السلام وراء هذا الموقف، يهيئ الناس للخروج إلى الجهاد.

واحتاج السلطان إلى أموال للإنفاق على إعداد المعركة، فحاول فرض ضرائب جديدة على الناس، لكن العز بن عبد السلام اعترض على ذلك وقال له: قبل أن تفرض ضرائب على الناس عليك أنت والأمراء أن تقدموا ما تملكونه من أموال لبيت مال المسلمين، فإذا لم تكفِ هذه الأموال في الإعداد للمعركة، فرضت ضرائب على الناس.

واستجاب السلطان لرأي العز بن عبد السلام، وخرج المسلمون للقاء المغول في معركة "عين جالوت" وكان النصر حليفهم.

أيها الإخوة:

توفي العزّ بن عبد السلام في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة للهجرة. عن ثلاثة وثمانين عاماً أمضاها في العلم والتعليم وتبليغ كلمة الحق للخلق، وتمرّ جنازته تحت القلعة بالقاهرة، وشاهد الملك الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها فقال لبعض خواصه: "اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني".

وطار خبر وفاة الشيخ في الأمصار وعلم أهل دمشق الأوفياء بوفاة إمامهم فصلوا عليه صلاة الغائب في الجامع الأموي، وأقاموا له عزاءً في جامع التوبة.

من أشهر ما ترك الشيخ من كتبه : كتاب "قواعد الأحكام في مصالح الأنام"، و"مختصر صحيح مسلم"، و"تفسير القرآن العظيم". وغيرها.

رحم الله سلطان العلماء العز بن عبد السلام، وطيب ثراه. والحمد لله رب العالمين.